طريقة الخفاجي في التهذيب اللغوي

ظهر منذ اوائل العصر العباسي طبقة من اللغويين كان جلّ همّهم ضبط معاني الألفاظ واصلاح اخطاء الأدباء والعامة . ومصنفاتهم نوعان : نوع تقريريّ يقرّرون فيه الكلمات المناسبة للمعاني ويشمل ما صنف في الفصيح والنوادر والأضداد والمشتركات والمترادفات وما الى ذلك . ونوع نقدي يتناولون فيه ما جرى على الأقلام والألسن من أخطاء فيشرحونها ويشيرون الى وجه الصواب منهـا .

ومن أمثلة النوع الأول ما يلي :

كتاب الأضداد	لقُطرب محمد بن المستنير	المتوفى سنة ٢٠٦ هـ	
〃 المثلثات	〃 〃	〃	〃
〃 النوادر	لأبي زيد الأنصاري	〃	〃 ٣١٥
〃 الألفاظ الكتابية	لعبد الرحمن الهمذاني	〃	〃 ٣٢٠
〃 ليس	لابن خالويه	〃	〃 ٣٧٠
〃 فقه اللغة	لأبي منصور الثعالبي	〃	〃 ٤٢٩

ومن أمثلة النوع الثاني :

لحن العامة	لأبي بكر الزبيدي	〃	〃 ٣٧٩
التصحيف والتحريف	لأبي احمد العسكري	〃	〃 ٣٨٢
التكملة	للجواليقي	〃	〃 ٤٦٥
درّة الغوّاص	للحريري	〃	〃 ٥١٦
تنبيه الانام	لخيسروزاده	〃	〃 ٩٩٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذه المصنفات اللغويه ما يجمع النوعين كأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ والمزهر للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

ولم تنقطع هذه الحركة اللغوية في عصر من العصور على انها على ما يظهر لم تكن بعد عهد شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ نشيطة او ذات نتائج تسترعي الانتباه .

فلما بزغت تباشير النهضة الحديثة عقب اتصال الأقطار العربية بمدنية الغرب كانت اللغة العربية هي الاداة التي استخدمت اولاً لنشر المعارف كما تبيَّن من المناهج الأولى للمعاهد الأجنبية العالية في بيروت والقاهرة وسواهما . وقد دفع ذلك اولي الأمر الى الاهتمام بتوسيع اللغة ورفع مستواها فنتج عن جهودهم في هذا السبيل أن الانشاء العربي اخذ يتقدم نافضاً عنه ما لحقه في القرنين السابقين من شوائب الركاكة والابتذال . وكان لا بدَّ من الاقبال على العلوم الحديثة ونقلها عن اللغات الافرنجية فظهر في اللغة العربية جملة من المؤلفات العلمية والفنية التي زادت ثروة اللغة بما أحيت من الفاظ قديمة وأحدثت من اوضاع جديدة .

وصحب ذلك نشوء الصحافة وهي تقوم على نشر الأخبار والمعلومات ومهما حافظت على المقاييس اللغوية العُرفية فانه لا يسعها الاّ مراعاة الجمهور بالاعتماد على السهولة والسرعة وعدم التكلّف .

كل ذلك أدّى بالكتبة والعلماء الى التساهل باقتباس اوضاع والفاظ اعجمية واعتماد كثير من المصطلحات المولَّدة التي لا ذكر لها في كتب اللغة . مما أثار الخواطر وأنشأ في بعض البيئات العلمية حركة جديدة لتهذيب اللغة الانشائية والرجوع بها الى الأصول القديمة وكان ذلك من أهم الأسباب التي دعت الى انشاء المجامع العربية المختلفة ولعلي اتناول في بحث آخر هذه المجامع وما قامت به . أما الآن فأكتفي بذكر من صنَّف في نقد الأخطاء اللغوية لكي أعود الى الخفاجي واقابل طريقته بطريقتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن أشهر المحدثين في هذا الباب ابرهيم اليازجي فقد نشر في السنة الأولى من مجلته الضياء (سنة ١٨٩٩) سلسلة مقالات في لغة الجرائد ثم نشر في السنة الثامنة منها سلسلة اخرى في اغلاط المولدين تناول على طريقة الحريري في درة الغواص وابن قتيبة في ادب الكاتب الألفاظ والأوضاع الشائعة مثبتاً خطأها وأوجه الصواب فيها . وكان دقيقاً جداً الى درجة التحرج الزائد .

وتبع اليازجي في آجال مختلفة عدد من الأدباء فنسجوا على منواله ونشروا على صفحات المجلات أو في مجموعات خاصة ما رأوه او توهموه من مغالط الكتاب ومن ذلك :

تذكرة الكاتب لأسعد داغر

الدليل في مرادف العامي والدخيل لرشيد عطيه

رسالة لابرهيم المنذر قدمها الى المجمع العلمي العربي

اصلاح الفاسد من لغة الجرائد لسليم الجندي

مغالط الكتاب للأب جرجي جنن البولسي

اخطاؤنا في الصحف والدواوين لصلاح الدين الزعبلاوي

عثرات الأقلام — مجلة المجمع العلمي العربي ١ و ٢ و ٣

وأشباه هذه المصنفات مما تجد فيه الغث كما تجد السمين . وطبيعي ان يكون للتحرج اللغوي بعض الأثر الصالح في المحافظة على أصول اللغة والعناية بقواعدها ولكنه قد أدى الى حركة عكسية قام بها جماعة من العلماء والأدباء ممن يرون في التحرج أو التقيد بما ورد في المعاجم وكتب اللغة القديمة خنقاً لروح اللغة وعثرة في سبيل تقدمها ومستندهم في ذلك المبادئ التالية :

١ — ان اللغة كائن حي يرتقي ويتطور مع الزمان

٢ — ان المعاجم العربية ناقصة لا تستوعب كل الكلام الفصيح وأنها مشوشة فلا تصلح ان تكون المقياس النهائي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ — ان ابواب القياس والاشتقاق والنحت والمجاز يجب ان تظلّ مفتوحة لمن يرغب في ولوجها

٤ — ان للألفاظ دلائل معنوية لا يحصرها نصّ أو رواية وانما يستعملها اهل الفطنة مع قراءتها المناسبة

٥ — ان شيوع لفظة صحيحة التركيب على ألسن الكتّاب كافٍ لرفعها الى مصاف الألفاظ الفصيحة .

وقد اتخذت هذه الحركة العكسية في مقاومتها للمحافظين المتحرّجين طريقين — طريق التهكّم الأدبي والاقناع الخطابي وذلك ما لسنا بصدده الآن — وطريق النظر العلمي اي محاولة تجديد اللغة عن طريق البحث . والذين جروا في هذه الطريق كثيرون اذكر منهم هنا ثلاثة فقط : جرجي زيدان ـ وجبر ضومط ـ وعبد القادر المغربي ـ ولكلٍ منهم مباحث واسعة في هذا الباب . وتظهر نزعة الأول في كتابه « تاريخ اللغة العربية » حيث يتناول المفردات والتراكيب وما طرأ عليها خلال العصور المختلفة من تطوّر وتبدّل ويضرب لذلك كثيراً من الأمثلة ثم ينتهي الى قوله : « يتبين للقارئ ان اللغة سارت سير الكائنات الحية بالدثور والتجدّد المعبر عنه بالنموّ الحيوي . فتولّد في العصر الاسلامي الفاظ وتراكيب لم تكن في العصر الجاهلي . وتولّد في العصور التالية ما لم يكن في ما قبلها . وأخيراً تولّد في نهضتنا الأخيرة ما لم يكن معهوداً من قبل . فالوقوف في سبيل هذا النموّ مخالف لناموس الارتقاء فضلاً عن انه لا يجدي نفعاً »

وبينا ترى زيدان يشدّد على مسألة « النمو الحيوي » في اللغة ترى جبر ضومط يدعو الى التحرّر من التقليد الأعمى ومن قوله في ذلك [1] : « ان التقيّد بالألفاظ والتراكيب القديمة مخالف أحياناً للبلاغة ولناموس الترقي وليس الخروج عنه بمفسد للغة بل ان بقاءنا على تحذي بلاغة الجاهلية وتوخّيها في كتاباتنا لا يجوز لنا »

(١) تقتبس هذه الفقرات من رسالته « اللغة العربية ما أخذت وما أعطت » المقتطف ٤٢ ج ٢ و ٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واللغة عنده « لا تمتاز بمفردات ورثناها من القدماء بل بأمرين جوهريين هما الاشتقاق والقياس فهما عماد اللغة وعليهما يتوقف ارتقاؤها وانحطاطها » .

ولو أردنا ان نلخص اجتهاده اللغوي في كلمتين لقلنا : هو اعتماده القياس وتفصيحه للاستعمال العام .

أما الأستاذ المغربي فقد جرى شوطا بعيداً في مضمار المباحث اللغوية والأدبية على انني اكتفي منها بالاشارة الى اقتراحاته بشأن الكلمات غير القاموسية [1] . فهو يطلب الاهتمام بها وتصنيفها ثم التمييز بين الجائز وغير الجائز منها . ويدلّك على نزعته التجدّدية أنه يجعلها سبعة أصناف ويجوّزها جميعاً الا اثنين هما العامي والثقيل من المقتبسات الأعجمية .

* * *

ولعلك تقول وما علاقة كل ذلك بشهاب الدين الخفاجي وطريقته فأقول : ذكرنا في صدر بحثنا ان جماعة من الأوائل عُنوا بضبط المفردات واصلاح الأخطاء الشائعة بين الكتّاب . ومن هؤلاء الحريري صاحب المقامات الذي وضع كتاب « درّة الغوّاص في اوهام الخواص » متابعاً فيه ادب الكاتب لابن قتيبة وسواه من كتب اللغة . وقد ضمنه اكثر من ٢٢٠ خطأً من الاخطاء الجارية على اقلام الكتّاب في زمانه وانتقدها مُورداً أوجه الصواب في استعمالها . على ان نقده على ما يظهر لم يشبع نفساً علمية كنفس الخفاجي فتناوله هذا الأخير شرحاً وتجريحاً . وقد راجعتُ هذا الشرح فأعجبتني طريقته ورأيتها ملائمة لروح عصرنا الحاضر وقلت في نفسي هو ذا رجل وجد في عصر مظلم من عصورنا الأدبية ومع ذلك تبرز فيه روح البحث الحقيقي التي أراها تبرز في أحرار هذا العصر . فلا يخشى ان يناقش علاّمة كالحريري سبقه باكثر من خمسة قرون وعُرف بين الخاص والعام بتضلّعه من اللغه ومعرفته الواسعة بشواردها واوابدها .

(١) راجعها في مجلة المجمع العلمي العربي ٨ ص ٢٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والذي يظهر لنا من مطالعة شرح الخفاجي لدرّة الغوّاص انه يأخذ على الحريري المآخذ التالية :

١ ــ تحجير الواسع : فالحريري عنده مُسرف في التضييق على نفسه وعلى سواه . ومن أمثلة تضييقه انه لا يستهلّ في المجاز فلا يسمي الخوان مائدة الاّ اذا وضع عليها الطعام ولا القَدَح كأساً الاّ اذا كان فيها ماء ولا المجلس نادياً الا اذا كان فيه أهله وينكر قولهم تشوّش الأمر وتشويش الأمور ويقول هو التهويش أما الخفاجي فيجوّز ذلك ويثبت ان بعض الفصحاء المشهود لهم لا يرون حرجاً في استعماله [١] . ويميل دائماً الى استعمال الأشهر أو المعروف .

ويمنع الحريري تعريف « كافّة » بأل او اضافتها ويزعم انها لا تأتي الاّ نكرة منصوبة مثل « جاء القوم كافةً » . ويرى الخفاجي انها لما كانت بمعنى الجميع فهي تساوقها في الاستعمال وقد استعملها الزمخشري والحريري نفسه [١] . ومن جميل قوله « لو اقتصرنا في الألفاظ على ما استعملته العرب العاربة والمستعربة فقط حجّرنا الواسع وعسر التكلّم بالعربية على من بعدهم » [٢] . وما أشبه هذا القول باقوال المجدّدين في هذا العصر .

وقد يؤدي اسراف الحريري في التضييق الى الخطأ وهو عين ما وقع فيه بعض نقّادنا المحدثين .

٢ ــ سوء الرواية والدراية : ويقصد الخفاجي بذلك ان الحريري على سعة اطلاعه اللغوي كان أحياناً يتسرّع في الحكم إما دون تدقيق في الرواية كما في منعه جمع « حاجة » على « حوائج » وهذا الجمع ورد في الحديث وشعر الفرزدق والأعشى وأقرّه الخليل وابن دريد وابو عمرو بن العلاء وسيبويه [٣] . وكذلك منعه

(١) شرح الدرّة ٦١ (٢) شرح درّة الغواص (الجوائب) ص ٧٠
(٣) شرح درّة الغواص ص ٨٥ ــ ٨٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

دخول « لعلّ » على الماضي مع انه يجوز فيها الشك في ما كان كما يجوز في ما يتوقّع حدوثه ويستشهد على ذلك بابن برّي وابن هشام والفرزدق والحديث [١] . وعلى هذا النحو منعه لفظة « قرابتي » وهي فصيحة مشهورة وقد وردت في أقوال الأئمة .

وأما لقلة الدراية كإنكاره تمغّر لمن تغيّر وجهه من الغضب وجعلها تمعّر . يقول الخفاجي ان تمغّر استعملت تشبيهاً للوجه المحمرّ غضباً بالمغرة كما يقال تحمّم وجهه اذا اسودّ كالحميم ويستشهد على ذلك باقوال الثقات [٢] .

ومثل ذلك انكار الحريري قولهم تتابعت النوائب بدل تتايعت (بالياء المثناة) وقولهم أبدأ به أولاً بدل اوّلُ وحكّني رأسي بدل أحكّني وغير ذلك مما يشرحه الخفاجي ويبين فيه خطأ الحريري وهو كثير .

٣ – عرجه بين السماع والقياس : فهو تارة ينكر السماع ويأخذ بالقياس وطوراً ينكر هذا ويأخذ بذاك . فمن انكاره للسماع منعه قولهم الفاكهاني والباقلاني . وجمعهم ارض على اراضي لأن القياس ان يقال فاكهي وباقليّ وان لا يجمع الثلاثي على افاعل . وكل ذلك مسموع ومقبول عند الفصحاء

ومن انكاره للقياس منعه اجتمع فلان مع فلان والصواب عنده اجتمع فلان وفلان . على ان ذلك عند الخفاجي لا يمتنع في قياس العربية بدليل انه يمكن استعمال الواو للمعية . واذا كانت للمعية جاز استعمال مع بدلها [٣] . ومثل ذلك انكاره قولهم ماعتب ان فعل كذا بدل ماعتم . وقياسيّه تعاقب الباء والميم وابدال احداهما من الأخرى [٤] . وفي تهذيب الأزهري ضرب فلاناً فما عتم ولا عتب ولا كذب .

---

(١) شرح درّة الغواص ص ٥٣
(٢) المصدر نفسه ص ٥٠
(٣) الشرح ص ٥١
(٤) الشرح ص ١٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى هذا النحو تخطئته لمن يقول جاءوا واحدا واحدا واثنين اثنين الخ بدل أُحاد وثُناء الخ . مع ان ذلك مقيس كثير في كلام العرب [١] .

٤ — اعتماده مذهباً دون مذهب : فالبصريون والكوفيون مثلاً مختلفون في لفظتي احمرّ واحمارّ والتسوية بينهما . وكذلك في النسبة الى الجمع مثل شعوبي وحرائري وفرائضي . وهو يتبع البصريين وليس المذهب الآخر بخطأ . وعلى هذا النحو تخطئته لفظة مَغَص بفتح العين للداء المعترض في البطن فيحتم اسكانها وذلك مذهب ابن السكّيت ويخالفه غيره من أهل اللغة . ويقول الخفاجي فهي اذن فصيحة فلا يغرنّك ما قاله المصنّف [٢] .

٥ — تشبثه بالحرف دون التأويل المعقول : فهو يمنع استعمال القافلة الاّ للرفقة الراجعة من السفر (اذ هي مشتقة من قفل بمعنى رجع) اما الخفاجي فيقول بل هي للمبتدئة بالسفر وسميت كذلك تفاؤلاً برجوعها سالمة كما سمي اللديغ سليماً [٣] .

ويمنع قولهم أقطعه من حيث رقّ لأن السماع من حيث ركّ اي خفف . ويقول الخفاجي ان باب المجاز واسع [٤] فرقّة الثوب يلزم منها عدم قوّته فلا مانع من ارادة لازبة .

ويخطّئ الحريري من يقول ركض الفرسُ والصواب عنده رُكض على المجهول . اما الخفاجي فيجوّز الأمرين وتأويل ذلك عنده انه اذا كانت للمعلوم كان معناها ضربت الفرس بحوافرها الأرض فأسرعت وللمجهول ضربت برجل الراكب حثّاً على الاسراع .

---

(١) الشرح ص ١٩١ (٢) الشرح ص ١٤٩ (٣) الشرح ص ١٥٧
(٤) الشرح ص ١٥٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وينكر الخفاجي تشبث الحريري باستعمال على بعد الفعل « بنى » في قولهم بنى الرجل بأهله اي تزوّج ويقول ان معنى بنى بها دخل بها وعلى ذلك قول ابي تمام :

لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك على بانٍ باهلٍ ولم تغرب على عَزَبِ

ويرى جواز الحرفين وان يكن الأصل ان يبني الرجل قبّة على عرسه اذا أراد الاعراس . وكثيراً ما تجيء الباء للاستعلاء[١] كقولهم مررت بفلان وعلى فلان .

٦ — انه لا يطبّق أحكامه على نفسه : ففي مقاماته يرخّص لنفسه باستعمال ما ينهى عنه في درة الغوّاص . فقد خطّأ من يستعمل افعلَ في غير المستقرّ الثابت من الألوان[٢] . ومع ذلك فقد جاء له في مقامته الكوفية « حتى انثنى محقوقفا مصفرّا » وفي الحرامية « واحمرت وجنتاه »[٣] .

وخطّأ استعمال اذ بعد بينا كقولهم بينا زيد قائم اذ جاء عمرو يقول الخفاجي « والعجب من المصنف انه قال في مقاماته[٤] « فبينا انا أطوف اذ رأيت الخ » وقال : « فبينا أنا عند حاكم الاسكندرية اذ دخل شيخ » .

* * *

ولستُ أزعم ان الخفاجي مُصيب في كل ما ذهب اليه على اني لا أجاري جمال الدين القاسمي بقوله « ان له ولعاً بالمناقشة غريباً وان لم يحظَ الواقف عليه بطائل » .

فالخفاجي واسع الاطلاع وطريقته في شرح درّة الغوّاص تدلّ على نظر واسع في الأمور وهو حريٌّ ان يكون قدوةً لبعض كتّابنا الذين يعالجون مثل هذه المباحث .

أنيس المقدسي

استاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية
وعضو المجمع العلمي العربي

(١) الشرح ص ٢٢٠ (٢) الدرّة ص ١٥ (٣) الشرح ص ٥١
(٤) الشرح ص ٩٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net